الكحل.. زينة وخزينة

كان الكحل، ولا يزال مادة الجمال والزينة الأنثوية، والتكحل (كما تقول المراجع) عادة شائعة عند العرب، وجاء (أبقراط) على ذكر الكحل ومدح فوائده، لهذا فلا يستخدم الكحل للزينة النسائية فحسب، بل هو علاج لبعض أمراض العيون، ولذا يكتحل الرجال كذلك للزينة أو بحثاً عن العلاج، ولعل البدوي هو المشهور بالاكتحال أكثر من غيره من رجال البيئات الأخرى.

أنواع الكحل:

- كحل الإثمد: ويجلب من مكة المكرمة لكنه يُسحن في الإمارات العربية المتحدة.
- كحل الصراي: الذ يصنع محلياً.

وتعتقد النساء بأهمية الكحل للأطفال، لذا يحرصن على أن يكحّلن الصغار منذ الولادة، تقول إحدى السيدات (من يطيح من بطن أُمّه كحّلناه) أي أنّ الكحل أوّل خبرة للمولود بالحياة. و(الكحل يَبْلي البصر) أي أنّ الكحل يقوّي حاسة الإبصار لدى الإنسان.

ويكحل الطفل في المهد بنوع (الصراي)، لأنّه طري وسهل التنظيف، كما أنّه بارد على عين الطفل، ولا يكّحل بالإثمد إلّا بعد أن يبلغ العاشرة من العمر.

ومن المعارف الشعبية المرتبطة بذلك، أنّ الطفل يكحّل قبل غروب الشمس، ذلك أنّ (كحال النهار زينة وكحال الليل خزينة) فهو في النهار (زينة) لأنّه مصدر للجمال. وفي الليل هو (خزينة) لأنّه يعمل على تنظيف العين وتنقيتها من الشوائب التي قد تكون علقت بها من أثر العمل نهاراً، وتقوم الأُم بتكحيل الطفل بعد أن تنتهي من تحميمه وتعطيره، ولشدة الاعتناء بالجنين، تقول إحدى السيدات عن

طفلتها الوليدة (يوم تهوين عليها في المنزكنها عروس) أي أنهنّ لشدة اعتنائهنّ بالأطفال ذكوراً أو إناثاً فإنّ المرء عندما يهم بتقبيل الطفلة وكأنه يشتم رائحة عروس في ليلة زفافها لكثرة العطور والزينة التي يحظى بها الوليد الصغير، وتعتقد النساء أنّ الزينة للطفل تساعده كثيراً على الاسترخاء وتشجعه على النوم، الأمر الذي يتيح للأُم إنجاز أعمالها براحة واطمئنان.

ولا يقتصر كحل الطفل على العينين بل يستخدم كذلك لتكثيف الحواجب، حيث يعتقد أن تكحيلها يساعد على نمو الشعر، ويعطي للطفل جمالاً خاصاً وتسمى هذه العملية (تحيّي).

طريقة تحضير الكحل:

أوّلاً: طريقة تحضير الإثمد..

لأنّ الإثمد هو المستخدم بشكل واسع، فقد حرصت النساء على تصنيعه وفق مواصفات محددة ضماناً لجودة الصناعة، فبعد أن يحضر الإثمد صلباً (قطعاً تُسمّى كُسَرْ) وتجلب من مكة المكرمة، تقوم إحدى السيدات المشهورات بمعالجته وصناعته بوضعه في وعاء يشبه القارورة يسمى (محبره) ثمّ تحضر (ماء الغدير)، أو (ماء المطر) وتملأ (الزجاجة بذلك الماء، ويعود استخدام ماء المطر في صناعة الإثمد وترطيبه لفائدته الكبيرة، حيث يعتقدون أنّه أكثر نقاء ونظافة من غيره، وبعد أن يوضع الماء في الزجاجة تلف بقطعة قماش ويسد فمها (فوهتها) بورقة كي لا تصدأ، وهنا تبدأ عملية الترشيح للإثمد، حيث تمتص ورقة الترشيح الصدأ العالق بأعلى الزجاجة وتمتد هذه المرحلة من عشرة أيام إلى شهر، ويبقى الإثمد مغموساً في الماء طيلة الفترة المذكورة.

وحينما تنتهي المدة المحددة، تقوم السيدة المسؤولة عن هذه العملية بإفراغ الإثمد من الزجاجة لتضعه في آلة للهرس تسمى (منحاز) حيث تسحقه ليصبح ناعماً، ثمّ تنقله لتضعه في وسط إناء من الحجر يسمى (حصاة) كبير الحجم واسع ومجوف ويأخذ شكل المربع طولياً، ومهمة هذه الآلة هي المساعدة في تسهيل عملية الطحن والهرس حتى يغدو الإثمد صالحاً للاستعمال بعد أن يصبح ناعم الملمس وسهل الاستخدام. وتستمر عملية السّحَن أو الهرس لمدة نصف ساعة، تضيف خلالها ماء المطر، ثمّ تلفّه من الوسط بقطعة قماش خفيفة ذات ثقوب متماسكة وهي من أصناف القطن وتسمى (الشربتي) كي لا يتلوث، وفي الأعلى تضع قطعة أخرى من التترون السميك قليلاً كي لا تصله الأوساخ، ولمزيد من الحماية يغطى المزيج (بصينيه) ويستمر حفظ المزيج بعد خلطه وتكسيره وطحنه لمدة أسبوع، يعبأ بعدها في زجاجات صغيرة ويباع لمن ترغب من النساء.

فوائد الكحل الطبية:

ومن فوائد الكحل الطبية – والتي تحتاج إلى دراسة مستفيضة – ما ذكرته أم سلطان من مدينة العين عن استخدام الإثمد لعلاج الحبل السري بعد قطعه، حيث يساعد الإثمد – كما يعتقدون – على جفاف ما تبقى من السر والتئامه بسرعة فائقة، فلا يستغرق زمناً طويلاً ليسقط، ولتحقيق ذلك تقوم الأُم أو الجدة بملء تجويف السرة بالإثمد ويستمر فيه لمدة أسبوع بعدها يسقط من دون ألم. ومازالت هذه الطريقة معروفة إلى اليوم عند كثير من الأسر التي تعتقد بأنّ للإثمد قيمة علاجية كبيرة. فهو يساعد على التئام الجروح أو يلوثها، لذا يعتمد عليه لعلاجات كثيرة. وتضيف أم سلطان: بعض النساء كن يستخدمن الكحل باعتباره مادة علاجية مانعة للحمل إذ تأكل المرأة بعضاً منه في الصباح الباكر وقبل أن تتناول أي غذاء، وبعد أن تبتلع كمية الكحل المحددة تتناول كأس ماء ليسهل عملية البلع، وتستخدمه بعض النساء في الحج لمنع الحيض.